

الحلقة (٢٨)

﴿ قوله تعالى: **﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾**: اختلف العلماء هل ذلك على الوجوب أو الندب، وهذا له نظائر قد مضينا قبلاً:

❶ فقال أبو موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه وابن عمر والضحاك وسعيد بن زيد وداود الظاهري وابنه: هو على الوجوب، وإليه كما قلنا ذهب شيخ المفسرين ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى. فهؤلاء جملة من الصحابة والصحابة كلهم رضوان الله تعالى عليهم أجمعين وبعض سادات التابعين ذهبوا إلى أن الأمر للوجوب **﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾** وقلنا لكم إن هذا هو مذهب ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى، فهو يرى أن الأمر الأصل أنه على الوجوب ما لم يكن هناك قرينة تصرفه عن أصله وعن بابه.

❷ وذهب الشافعي رحمه الله تعالى والشعبي والحسن إلى أن ذلك على الندب، ويحكي أن هذا قول مالك وأصحاب الرأي.

﴿ من قال بالوجوب فالظاهر واضح، **﴿وَأَشْهِدُوا﴾** هذا أمر لاشك أنه أمر، فأخذ بظاهر الآية فقال إن الأمر للوجوب.

﴿ أما من نظر إلى الواقع ونظر إلى القرائن فيرى أن الأمر للندب كنظائره.

﴿ قوله تعالى: **﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾** فيه ثلاثة أقوال:

الأول: لا يكتب الكاتب ما لم يمل عليه، ولا يزيد الشاهد في شهادته ولا ينقص منها قاله الحسن وقتادة وطاووس وابن زيد وغيرهم.

القول الثاني: لا يمتنع الكاتب أن يكتب ولا الشاهد أن يشهد، وهذا مروى عن ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وعطاء.

القول الثالث: أن يدع الشاهد أن يشهد والكاتب أن يكتب وهما مشغولان يعني **﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾** هذه ثلاثة أقوال قيلت في معنى الآية.

﴿ قوله تعالى: **﴿وَأَنْ تَقْعَلُوا﴾**: يعني المضارة، **﴿فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾**: أي معصية.

﴿ قوله تعالى: **﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾**: وعد منه سبحانه وتعالى بأن من اتقى علمه، ولاحظوا أن تذييل الآية بهذا الإغراء الذي فيه ما فيه **﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾** فإنه هو سبحانه وتعالى من اتقاه فتح له آفاقاً لا تخطر له على بال، فقد قلنا أن المعاملات المالية متجددة، وأن النصوص الشرعية محصورة، فإما أن يلجأ العالم الفقيه الاقتصادي إلى الدليل مقيساً أو

يقيس به غيره من الوقائع، أو أن يستخرج الحكم من الدليل ثم يؤسسه عليه، لأن المعاملات المالية كثيرة جداً، فكل معاملة بحاجة إلى فقه وعقل، أين مصدر الفقه؟ قوله تعالى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾، أين مكان الفقه؟ قوله تعالى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فتذليل الآية أي ختمها بالدعوة إلى لتقوى، ويترتب عليها أي التقوى أن الله عز وجل يعلمك ما لم تكن تعلم، لأن الدنيا كلها الله عز وجل هو الذي خلقها سبحانه وتعالى، ويخلق ما لا تعلمون.

« ونشير هنا إلى أن قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أمر، وأنتم تعلمون أن جواب الأمر يكون مجزوماً، فكيف جاء قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾، والمضارع هنا ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ بالرفع؟ قرئ في الشاذ ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ هذا هو أصل الكلام.

أما هنا فقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فكأن الآية مستأنفة، ولاحظوا وأنتم لحظة أن ﴿يُعَلِّمُكُمُ﴾ استعمل الفعل الذي هو دال على التجدد والاستمرار المضارع، ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ﴾ والله عز وجل لم يزل عليماً سميعاً سبحانه وتعالى، فإذن من اتقى الله عز وجل ولا سيما وقت الاشتباه، وقت كثرة المعاملات المالية في هذه العصر الحالية بشكل لا يستطيع الحاذق أن يلم بها كلها، فإذن لا بد للاقتصادي أن يكون متقياً لله عز وجل حتى يفتح عليه في المعاملة، من حيث حلها وحرمتها، من حيث كثرة الرزق وقلته، كل ذلك ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً﴾.

فإذن على الاقتصادي سواء أكان قد تعامل بالربا ثم تاب وعاد وآب، أو من لم يقع في هذه القاذورات المالية، والرسول صلى الله عليه وسلم سمي أخوات هذه الأمور قال: ﴿ومن وقع في هذه القاذورات﴾، ومن لم يقع في هذه القاذورات فيحمد الله عز وجل وليستقم على نهجه ومنهجه، ومن تعامل بالدين مضطراً إليه أو لم يضطر إليه؛ فعليه أن يتقي الله عز وجل، ومن كان صغيراً ولا يستطيع أن يتعامل بالمعاملات المالية فليثق بالله قيّمه ومن يدير أموره، ومن كان كبيراً هرملاً لا يستطيع أن يدير أموره فليثق بالله أيضاً قيّمه والقائم على أموره، ومن لم يستطع أن يتعامل بالمعاملة وقد أصيب بشيء من الخرس أو العجز أو الجنون فليثق بالله من يتولى شؤون هؤلاء، إنه إن اتقى الله عز وجل فإن الله فاتح عليه وعلى أمثاله أبواباً لا تخطر له على بال.

{وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} وقلنا لكم إن تذليل الآية بالدعوة إلى تقوى الله عز وجل، ثم بالدعوة إلى الاحتراز من الأمور، ثم استعمال المضارع الذي يفيد الاستمرار كل ذلك يدل على أن المتقي هو الفائز في هذه الحياة وبعد هذه الحياة.

{وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} ولاحظوا أنه استعمل الظاهر دونما ضمير، دونما مضمّر، كان في غير القرآن: واتقوا الله فيعلمكموه وهو بكل شيء عليم، هذا يقع في كلام الناس، ولكنه سبحانه وتعالى استعمل الاسم الظاهر بدلا عن المضمّر وسواء للدلالة على أهمية التقيد بمثل هذه الأمور، بمثل تلك الدعوات، بمثل هذه التوجيهات.

{وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} نكون بهذا بعون الله وتسديده وتوفيقه قد انتهينا عن الحديث عن أطول آية في كتاب الله عز وجل، وقلنا لكم إن ابن خويزمنداد قال إن هذه الآية تضمنت (٣٠) حكماً، وأنا أقول أن فيها أكثر من (٣٠) متى ما استهدى الإنسان بالدليل، فلم يتجاوز من أن يذهب بعقله ورأيه، لا، نريده أن يستظل بالدليل ويعيش تحت الدليل، عندها تتضح له معان لم تتضح لا لابن خويزمنداد رحمه الله ولا لغيره، والقرآن لا تنقضي عجائبه، وخير مفسر للقرآن هو الزمن، فإذن تلك إشارات وعبارات قلناها، ومجال الاستزادة والاستقصاء هو إما كتب التفسير التي عنيت بإبراز الجوانب الفقهية، أو كتب الفقه، فستجد هناك مجالاً رحباً، وستجد هناك مجالاً للقول على حد قول أبي الطيب المتنبي:

لقد وجدت قولاً ذا سعة****فحيث ما أمكنك القول فقل

فنحن لم يمكننا القول ولم نأتي إلا على جزئيات يسيرة، فبهذا نكون قد انتهينا عن الحديث والتفسير عن أطول آية في كتاب الله عز وجل. نأتي بعد ذلك مختتمين هذا الحديث بآية هي لها علاقة بآية المداينة، من حيث إن معاملة مالية وقعت في غير الحضر، في السفر مثلاً، في غير الإقامة في السفر، كيف يكون الوضع؟ هذا ما سنعرفه إن شاء الله

مع قول الله عز وجل: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.

فهذه صورة أخرى من صور التبايع أو المعاملات المالية، صورة ما لو كان المسافرون مسافرين واحتاج أحدهم مبلغ نقدي (كاش)، واضطر إلى أن يستدين فماذا يفعل؟ وكيف يتصرف؟ وهو في سفر ومضطر وحيث نزول القرآن؟ ونحن نعلم أن القرآن نزل وقت كان الناس يستقلون، ما كانوا يستقلون طائرات ولا سيارات ولا عربات، إنما كانوا يستقلون الدواب من إبل وحمر وما إلى ذلك، فيحتاج الإنسان إذا انتقل وهو مسافر من بلده إلى بلد آخر وهم كانوا رفقة جماعة فقد يحتاج إلى مبلغ حاضر (كاش)، لو في بنك لو في كذا ما يخالف يمكن إنك بالصراف الآن، وحيث لا صراف ولا صرافة ولا شيكات وحيث لا طرق و...الخ فالآن تغيرت الصورة، ولكن الحكم قد يقع في أي لحظة لأنك أنت مسافر إلى منطقة ما، وقد تفقد كل ما معك وتضطر للمال ويعطيك إنسان (كاش) حالاً، فكيف يكون الوضع؟ -كاش على التوسع-

أولاً: نأتي للقراءات.

قوله تعالى {وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ} كلمة {فَرِهَانٌ} فيها قراءتان:

❶ قراءة بعض القراء (فرهن مقبوضة) كأنه جمع الجمع، قرأ ابن كثير المكي وأبو عمرو البصري (فرهن

مقبوضة على معنى أنه جمع الجمع، وجمعه باعتبار تعدد المخاطبين بهذا الحكم.

• وقراءة عامة الناس وجمهور الناس (**قَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ**)، وقرأ الباقون من القراء بفتح الهاء وكسر الراء، **{قَرِهَانٌ}**، وهو جمع رهن، إذن هاتان قراءتان سبعيتان قرءتا بهما قوله تعالى: **{قَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ}**.

• والرهن هنا اسم للشيء المرهون تسميةً للمفعول بالمصدر، ومعنى الرهن: أن يجعل شيء من متاع المدين بيد الدائن وثيقة له في دينه، وأصل الرهن في كلام العرب يدل على الحبس قال تعالى (**كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينٌ**)، فالمرهون محبوس بيد الدائن إلى أن يستوفي دينه، إذن الرهن الأصل أنه الشيء المرهون، هو كما يعرفه بعض الفقهاء هو: أن يجعل مال مكان شيء مكتوب مرهون، والرهن شائع عند العرب، فقد كانوا يرهنون في الحملات والديات إلى أن يقع دفعها، فربما رهنوا أبناءهم وربما رهنوا واحداً من صناديدهم، إذن الرهن كان معروف عند العرب في جاهليتها.

❁ **أما مناسبة الآية لما قبلها:** فإنه لما ذكر تعالى الندب إلى الإشهاد والكتب لمصلحة حفظ الأموال؛ عقب ذلك بذكر حال الأعذار المانعة من الكتب وجعل لها الرهن، والمناسبة واضحة.

❁ **نأتي إلى المفردات:**

١. **{عَلَى سَفَرٍ}**: قال أهل اللغة تركيب هذه الحروف للظهور والكشف، يعني مادة سَفَرٍ، (فالسفر) هو الكتاب لأنه يبين الشيء ويوضحه، وسمي السَفَرُ سفراً لأنه يُسَفَرُ عن أخلاق الرجال: أي يكشف.
٢. قوله تعالى: **{قَدْ أَمِنَ بَعْضُكُمُ} أي لم يخف خيائته وجوده ولا يكون فيه كتابة ولا شهود ولا يكون فيه رهن، وأمن فلان غيره إذا لم يكن خائف منه.**

٣. **{فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ}** أي فليؤدي المديون الذي كان أميناً ومؤتمناً في ظن الدائن، فلا يخلف ظنه في أداء أمانته وحقه إليه، يقال: أمنتته وائتمنته فهو مأمون ومؤتمن.

٤. **{وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ}** أي هذا المديون يجب أن يتقي الله ولا يجحد، لأن الدائن لما عامله المعاملة الحسنة حيث عَوَّل على أمانته ولم يطالبه بالوثائق من الكتابة والإشهاد والرهن، فينبغي لهذا المديون أن يتقي الله عز وجل ويعامله المعاملة الحسنة لئلا ينكر ذلك الحق وفي أن يؤديه إليه عند حلول الأجل.

٥. **{وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ}** نهى الشاهد في أن يضر بكتمان الشهادة، وهو نهى على الوجوب بعدة قرائن منها الوعيد، وموضع النهي هو حيث يخاف الشاهد ضياع حقه.

٦. **{وَمَنْ يَكْتُمَهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ}** خص القلب بالذكر لأن الكتم من أفعاله، **{آثِمٌ قَلْبُهُ}** هذا من بديع البيان ولطيف الإعراب، يقال إثم القلب سبب مسخه، فـ **{قَلْبُهُ}** رفع بـ **{آثِمٌ}**، و **{آثِمٌ}** خبر إن واسم الضمير "أنه" رفع بالابتداء، و **{قَلْبُهُ}** فاعل يسد مسد الخبر، والجملة خبر إن، أو أن **{قَلْبُهُ}** بدل من **{آثِمٌ}** بدل البعض من الكل.

في واقع الأمر كما يقول ابن عباس رضي الله عنهما لم ينسب الإثم في معاملة كما هو في هذا الموضع **{فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ}**: أكد أن هذا القلب قلب آثم، ليس صاحبه فقط، القلب آثم، فإذا كان القلب

وهو الأصل فيه الإثم وهو آثم، فيأذن على صاحبه العفاء.